د. محمد يوسف نجم

خواطر حول نشأة القصة في الأدب العربي الحديث

في مثل هذه الايام قبل مائة عام وسبعة ، كان شاب لبناني لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره يحمل الى المطبعة فصلا من قصة واقعية تدور احداثها بين لبنان وسورية ، لتنشر في العدد الاول من اول مجلة ثقافية في العالم العربي ، وهي مجلة « الجنان» . كان هذا الشاب هو سليم البستاني ابن المعلم بطرس البستاني طليعة المجددين في نهضة لبنان الثقافية في القرن التاسع عشر : ولم يكن ذاك الشاب وهو يصحح تجارب قصته تلك يدرك أنه بهذا العمل يرود فنا عظيما من فنون الادب ، اصبح اليوم اكثر الفنون الادبية انتشارا ورواجا في الشرق والغرب .

ولكن هذا العمل الذي اقدم عليه البستاني الابن لم يكن حدثا عفويا ، سافته اليه الرغبة في الترفيه عن قراء مجلته الجديدة ليضمن اقبالهم عليها ، ولم تكن القصة نباتا شيطانيا استوى ساقه فوق الارض العربية فجاة ، واظلته الاجواء العربية وهيات له اسباب التقوى والنماء ، بل كانت ثمة ظروف اجتماعية وثقافية وادبية تقتضي ظهور هذا الفن وتهيء له سبل الانتشار ، هذه الظروف يمكن اجمالها في ما يلي :

(١) بروز الطبقة الوسطى التجارية والمهنية التي تتطلب ادبا يعبر عن ذوقها ويصور آمالها ومطامحها .

(٢) ظهور فئة من المثقفين الذين درسوا في المدارس والكليات الحديثة واطلعوا على العلوم والاداب الغربية فتغيرت امزجتهم وتبدلت نظرتهم الى الحياة .

(٣) ظهور المطبعة التي ساعدت على انتشار الكتب المترجمة والمؤلفة ، وعلى اصدار الصحف والمجلات .

كان النظام الاقتصادي اللبناني حتى منتصف القرن التاسع عشر يعتمد على الزراعة اولا ثم على المشروعات التجارية الصغيرة . ولكن في سنة ١٨٥٦ حدث تطور هام في الدولة العثمانية والولايات التابعة لها ، اذ اصدر الخليفة العثماني ، عقب هزيمة جيوشه في حرب القرم وسقوط حصن سباستبول سنة ١٨٥٤ ، خطا همايونيا حاول ان يظهر فيه حسن نيته تجاه القوى الاوروبية وذلك بالمساواة بين رعايا الدولة من مسلمين ومسيحيين . ولضمان هذه المساواة ادخلت تنظيمات عديدة من اهمها التنظيمات القضائية التي ادت الى انشاء المحاكم النظامية الحديثة من مدنية وتجارية وبحرية وجزائية .ووضعت قوانين عصرية ، على نمط القوانين الاوروبية تشمل احكامها جميع الدولة من مسلمين ومسيحيين دون تمييز . وفي سنة ١٨٦٧ وجهت الدول الحليفة الثلاث ، فرنسة وانجلترا والنمسة مذكرة الى الباب العالي تحثه فيها على مزيد من الاصلاحات . فاستجاب السلطان عبدالعزيز لهذه المذكرة واجرى اصلاحات جديدة في القوانين والمعارف. وفي سنة ١٨٦٩ صدرت مجلة الاحكام التي اعدها العالم المؤرخ القانوني احمد جودت باشا ، ومن اهم ما جاء فيها القوانين المدنية والمحاكمات النظامية . ولا حاجة الى القول بان هذه التنظيمات الاصلاحية احدثت انقلابا عظيما في الامور الادارية والقضائية واثرت تاثيرا عميقا في الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وخاصة في المدن التي كانت تضم جماعات كبيرة من رعايا الدولة المسيحيين ، مثل مدينة بيروت التي كان موقعها البحري ييسر لها الاتصال بالبلاد الاجنبية والاتجار معها .

وفي سنة ١٨٦٠ حدثت تطورات هائلة في الاقتصاد العالمي، ادت الى تطور عظيم في التجارة بين الدول . ففي تلك السنة اخذت التجارة تنتقل من الطور البري الى الطور البحري . وتم توقيع المعاهدة التجارية بين فرنسا وانجلترة ، فانتهى عهد الحماية الاقتصادية التي كانت تعيق سبل التجارة ، وبدأ عهد جديد من الحرية الاقتصادية والعلاقات السلمية بين الدول الاوروبية .

وفي السنة المذكورة دخلت جيوش الدول الاوروبية مدينة بكين وفتحت ابواب الصين للتجارة العالمية ، واستقرت فرنسا في عاصمة الهند الصينية ، واحتلت انجلترا مضايق الملايو ، وشقت روسية طريقها نحو المحيط الهادىء من مرفأ فلاديفستوك ، وادى كل ذلك الى اتساع نطاق التجارة العالمية .

وفي الوقت نفسه اخذت تتوالى الاختراعات الخاصة بوسائل المواصلات ، وخاصة المواصلات البحرية . ومع ان السفن التجارية اخترعت قبل سنة ١٨٦٠ بمدة طويلة ، غير انها لم تستطع ان تلعب دورا كبيرا في النقل البحري ، لانها كانت كثيرة التكاليف ، فظلت واسطة لنقل الركاب دون البضائع ، وبقيت السفن الشراعية الوسيلة الاولى للنقل التجاري . ولكن بعد سنة ١٨٦٠ حدث تقدم كبير في صناعة السفن التجارية فعممت طريقة استعمال الرفاصات الخلفية عوضا عن الدواليب الجانبية كما حلت المكابس محل النقالات لتحويل الحركة المتناوبة الى حركة مستديمة . وتقدمت صناعة الفولاذ تقدما كبيرا امكن معه بناء السفن التجارية الفخمة من الفولاذ عوضا عن الخشب . كل هذه الاختراعات والتحسينات ساعدت على تضخيم احجام السفن والزيادة في سرعتها ، وتقليل نفقاتها ، مما جعلها عاملا هاما في ازدهار التجارة البحرية ازدهارا سريعا وفتح عهد الاسواق العالمية .

هذه العوامل وغيرها ساعدت على ازدهار مدن الموانيء ومنها بيروت . وعقب الفتنة الطائفية التي اعدت الدول الاجنبية لتشوبها في جبل لبنان وفي سورية سنة ١٨٦٠ ، اخذ اصحاب الرساميل الضخمة يهجرون قراهم ويتجهون الى بيروت . فازداد عدد سكان المدينة . ومن العوامل التي دفعت باهل الجبال الى السكنى في المدن زيادة المثقفين زيادة عالية والرغبة الملحة في رفع مستوى العيش والشعور بان مجال العمل والكسب في المدن افضل واوسع مما هو عليه في القرى فاصبحت مدن الساحل الصغيرة ذات الازقة والمعابر التي يسيجها الصبير مدنا كبيرة عصرية ـ فمدينة بيروت مثلا ، التي كان عدد سكانها عند مستهل القرن التاسع عشر خمسة آلاف نسمة ، اصبح عند نهاية القرن مائة وعشرين الفا ، وظهر في هذه المدن الناشئة جماعة من التجار العصريين الاغنياء الذين استطاعوا تدريجيا ان يقبضوا على دفة الاقتصاد الوطني . واصبح هؤلاء التجار الاغنياء الاقوياء مع جماعة المحامين والاطباء والاساتذة الذين تخرجوا من مدارس غربية او مدارس تسير على النهج الغربي يشكلون طبقة ثالثة جديدة في البلاد « طبقة تقف بين الامراء والاقطاعيين والاكليروس ، من جهة ، وفئة تتالف من الفلاحين والعمال » . هذه الطبقة هي الطبقة البرجوازية التي اصبحت تشكل عصب المجتمع البيروتي في النصف الثاني من القرن الماضي . هذه الطبقة الجديدة ، بنشاطها التجاري الواسع القائم على توزيعها البضائع المستوردة في بيروت وفي مدن الداخل في سورية ، لفتت اليها انظار البيوتات التجارية الاوروبية فانشىء بنك انجليزي قبل سنة ١٨٥٨ . ثم انشىء البنك العثماني الذي ترك لنا رئيس قسم المحاسبة فيه ، لوس فارلي ، اصدق وصف لنمو بيروت التجاري في السنوات الثلاث التي تبعت عهد التنظيمات . وفي سنة ١٨٦٣ انهت شركة فرنسية ، بعد اعمال دامت خمس سنوات ، شق طريق العربات بين بيروت ودمشق ـ اول طريق من نوعها في البلاد . وانشات الشركة خط مواصلات لعربات الدليجانس التي يجرها عدد من الجياد وتسير مرتين يوميا بين بيروت ودمشق . واصبحت هذه الطريق بين بيروت ودمشق خطا رئيسيا لنقل البضائع بين البلدين وطريقا تتفرع منه الطرقات الثانوية شمالا ويمينا فتربط بين القرى والمدن . وفي سنة ١٨٦٧ اصدر السلطان فرمانا يسمح بموجبه للاجانب ان يقتنوا ، لاول مرة في تاريخ السلطنة ، املاكا مما يشجع الاجانب على الاقامة في بيروت واقتناء العقارات فيها .

كل هذه التطورات التي حدثت في فترة لا تتجاوز العشرسنوات، جعلت من بيروت مركزا تجاريا هاما ، فتجاوزت وارداتها من الدول الغربية سنة ١٨٥٧ ، المليون من الجنيهات الاسترلينية وكادت صادراتها تبلغ المليون ، المجموع من السكان لا يتجاوز المئة الف .

هذه الطبقة الناشئة من التجار الاساتذة كانت تتطلب ظهور ادب جديد ينير لها السبيل في مشكلاتها الاقتصادية ويعلمها اصول التصرف في معاملاتها التجارية والمنزلية وينتقد اقبالها على العادات الافرنجية ويحثها على حب الوطن وتوفير الالفة بين ابنائه .وقد اسهمت الصحف والمجلات التي ظهرت في تلك الفترة في توفير هذا الادب الاجتماعي النقدي ، فكانت حديقة الاخبار التي اصدرها خليل الخوري في مطلع سنة ١٨٥٨ ونفير سوريا التي اصدرها بطرس البستاني سنة ١٨٦٠ والجوائب التي اصدرها فارس الشدياق سنة ١٨٦١ والجنة والجنينة اللتين اصدرهما المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٧٠ و١٨٧١ على التوالي تنشر المقالات الاجتماعية التي تشرح معنى التمدن الصحيح ، وتصور قيم الطبقة الوسطى التجارية كاليقظة والحذر والاقتصاد والامانة والصدق وحسن المعاملة . وقد اشتهر من بين هؤلاء الكتاب فارس الشدياق بنماذجه البشرية التي كان ينشرها في جريدته « الجوائب » في مقالات بعنوان « في ادب الدرس والنفس » ، وفي « اللهو والبطالة » و « التمدن » وما اليها . وقد ابرز هذا الاتجاه المعلم بطرس البستاني في محاضرة القاها سنة ١٨٦٩ موضوعها « الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والافرنجية » . وفي سنة ١٨٧٠ ظهرت مجلة الجنان اولى المجلات الثقافية في العالم العربي ، وكان يتولى تحريرها سليم البستاني، باشراف من ابيه . هذه المجلة تعبر بما فيها من قصص ومقالات عن قيم الطبقة الوسطى واخلاقياتها ومطامحها ومشكلاتها . فاذا تصفحنا مقالاتها وجدنا انها تحرص اشد الحرص على عرض فضايا التمدن والتهذيب والسعادة والجد والاجتهاد وادب الزيارات والمعاملات وقضايا التجارة والصناعة والعلوم المفيدة . لقد كان دور هؤلاء المقاليين شبيها بدور المقاليين الانجليز في القرن الثامن عشر الذين مهدوا لظهور القصة الانجليزية الواقعية . وكان من ابرز هؤلاء المقاليين رتشارد ستيل (١٦٧٢ ـ ١٧٢٩) ، وصديقه جوزيف اديسون (١٦٧٢ ـ ١٧١٩) ودانيال ديفو (١٦٦٠ ـ ١٧٣١) ، وكانوا يعالجون القضايا العامة التي تعرض للمجتمع في مختلف مراحل تطوره ، ومنها تلك الموضوعات التي تدور حول بعض الصفات الخلقية كالتواضع والحلم والسماحة والكرم والغرور والجشع، او حول العلاقات الاجتماعية كالصداقة والزواج وادب الحديث وحسن العشرة والتربية الصالحة وما الى ذلك ، او حول الموضوعات الطارئة التي تجد في المجتمع عند تغير بعض العادات والتقاليد والازياء كالحفلات التنكرية والمباريات واستنشاق السعوط وتطور ازياء النساء والرجال وشيوع قراءة الصحف والجلوس على المقاهي وما الى ذلك .

الى جانب الطبقة الوسطى التجارية ظهرت الطبقة الوسطى المهنية، وقوامها من الاطباء والصيادلة والمهندسين والمعلمين الكتاب والموظفين الذين تخرجوا من مدارس محمد علي في مصر او من مدارس المبشرين الانجيليين والكاثوليك في بيروت . كانت هذه الطبقة تنتمي الى الحالة الثالثة بحكم موقعها الاجتماعي ، وانتماءاتها العائلية ، وكانت فضلا عن ذلك تمثل النخبة المثقفة في صفوف الطبقة الوسطى . وقد غدت هذه الطبقة مع الزمن راعية الآداب والفنون والمستهلك الاول لما كانت تصدره المطابع في لبنان ومصر من صحف ومجلات وكتب مترجمة او مؤلفة . فمن صفوفها خرج المؤلف الاول والمترجم الاول والمسرحي الاول والقاص الاول والقاريء الاول . ولذا فلا بد من ان تتجه حركة التاليف والنشر خارج النطاق الرسمي الى تلبية حاجات ابناء هذه الطبقة وبناتها ، والى مجاملتها لتحقيق رغباتها وتصوير مشاعرها والتعبير عن قيمها .

وقد كان من شان الثقافة الحديثة التي لقنها ابناء هذه الطبقة ان تغير امزجتهم وان تجعلهم يؤمنون بالعلم وتطبيقاته ويتعلقون بالحقائق الثابتة بالبرهان العلمي او الحجة المنطقية ، ولذا لم يعد من الممكن ان يقتنعوا بما كان يقدمه لهم الادب الشعبي من مغامرات عنتر وحروب ابي زيد الهلالي ورحلات سيف بن ذي يزن في البراري والقفار وتقلبه بين ايدي المردة والسحرة . كل هذا غدا ضربا من الاوهام التي لا تستسيغها عقولهم الحديثة ، فكان لا بد لارضائهم من ظهور ادب واقعي بالمعنى الحديث للواقعية الذي يتمثل في مؤلفات دكارت ولوك وتوماس ريد ، وفي ممارسات الواقعيين الاول من انجليز وفرنسيين امثال رتشاردسون وفيلدنج وسموليت وبلزاك وستندال وفلوبير .

وكان لا بد لهذا الادب الجديد من توافر الوسائل المساعدة التي تعين على نشره وتعميمه بين القراء . وقد كانت المطبعة التي ظهرت في وقت مبكر من القرن الماضي هي وسيلة النشر ، وكانت الصحيفة الشعبية التي ظهرت في العقد السادس من القرن الماضي ، هي وسيلة التعميم والرواج ، معززة في ذلك ما كان يصدر عن المطابع من كتب مترجمة او مؤلفة .

لقد عمدت اول مجلة ثقافية في العالم العربي ، وهي الجنان الى اصطناع القصص وسيلة للترفيه عن القراء وافادتهم ووعظهم . فخصصت في آخر كل عدد من اعدادها بابا سمته باب الفكاهات ، كانت تنشر

فيه اجزاء من قصة مسلسلة او اقصوصة موضوعة او مترجمة . وعلى صفحات الجنان نشرت قصص سليم البستاني الاجتماعيـــه الست ، وقصصه التاريخيـة الثلاث ، كمـا نشرت فصنا نعمـان الغساطلي الدمشقي « مرشد وفتنة » ،و « انيس » . هذا فضلا عن الاقاصيص المترجمـة والموضوعة التي نشرت فيها . وقد غدت الجنان نموذجـا للصحف والمجلات العربية في هـذا الصدد ، فنجد الاهرام والمقتطف واللطائف والهلال والضياء والمشرق تخصص في اعدادها بابا ثابتا للقصة . وفي الوقت نفسه اخذت تصدر بعض المجـلات القصصيـة المتخصصة ومنها في بيروت :« سلسلة الفكاهات في اطايب الروايات » و « ديوان الفكاهة » و « الـراوي » و « اللطـــائف الاهليـــة » و « الانيس » و « الروايات المصريـة » و « المسامرات السورية » و « مسامرات الشعب » . وفي مصر صـدرت « حديقـــة الادب » و« سلسلة الفكاهات » و « منتخبات الروايات » و « الفكاهـة » و « سلسلة الروايات » و « الروايات المصرية » و « حديقة الفكاهة » و « مسامرات النديم » و « مسامرات الشعب » وغيرها .

وقد عنيت هذه الصحف والمجلات بنشر القصص المترجم في المقام الاول ، حتى غدا معظم آثار مشاهير كتاب القصة الشعبية في فرنسا في القرن التاسع عشر ميسرا للقارىء العربي في ترجمات تتراوح بين القوة والضعف والامانـة والتصرف . واصبحت اسمـاء برناردان دي سان بيير وهنري بوردو وشاتوبريان وفرنسوا كوبيه وفرنسوا ديكوربل وبيير ديكورسيل والكسندر دوما الاب واميل غابرريو وفكتور هيجـو مالوفـة بيـن القراء العرب في القرن المـاضي .

ولكن هذا القصص المترجم كان ذا اثر سيء علـى ذوق جمهور القراء ، اذ لمـا كانت غايـة المترجمين واصحاب الصحف اجتـذاب القراء بمادة ترفيهية مسلية ، لم يتحروا في اختيار النماذج الجيدة من القصص ، ولم يحرصوا في ترجمة ما اختاروا على الامانة والدقة، ولم تكـن اساليب اكثر المترجمين من الاساليب الجيدة . ولذا اختفى صوت بلزاك وستندال وفلوبير الانساني الصادق ، بين جعجعـــات الرومانطيقيين ولهجاتهم الخطابية المجلجلة . وظن القارىء ان هـــذا الادب المشوه الذي يقرأه هو القصة الحقيقية . وكان لا بد من عملية تصحيح للقواعـد وتقويم للاذواق ، ظهرت اولا في ما ترجمه المقتطف ومـا الفه جورجي زيدان وفرح انطون ، ثم في اليقظة الثانية للواقعية على يدي هيكل والحكيم والمازني .

ذكرت في ما سبق الظروف الاجتماعية والثقافية والادبية التـي اقتضت ظهور هذا الفـن الجديد ، وهيأت له سبل الانتشار والرواج. ولكن مـا هي خصائص هذا الفـن الجديد ، وبم تمتاز القصة الحديثة عن الرومانسيات التي تربى عليهـا ذوق القراء والمستمعيـن العرب في القرون الوسطى . بم تختلف قصة سليم البستاني الواقعية عن قصة حرب بني شيبان مع كسرى انوشروان وقصة « البراق » وسيرة عنترة وسيرة سيف بن ذي يزن وسيرة بني هلال وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة الاميرة ذات الهمـة ؟

يقسم التاريخ الادبي العصور التي مر بهـا الادب القصصـــي الـى ثلاثـة :

(١) عصر الملاحم الشعرية والنثرية من هوميروس حتى القرن الثاني عشر.

(٢) عصر الرومانس من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر .

(٣) عصر القصة من القرن الثامن عشر حتى اليوم

وهذه العصور توازي ثلاث مراحل من مراحل تطور الحيـــاة الانسانية ، وهي المرحلـة الحربية (عصر الابطال وانصاف الآلهـة)، والمرحلـة البلاطية (عصر الفرسان)، والمرحلـة التجاريـــة (عصر البرجوازية) . والقصص العربية القديمة تنتمي الى عصر الرومانس وتطلق الرومانس على انواع مختلفة من قصص القرون الوسطى التـي حلت محل ملاحم الابطال ، وخاصة في فرنسا ، وفي البلدان التـي تأثرت بالنموذج الفرنسي للرومانس وتخلت عن اشكالهـا وموضوعاتها الملحمية تحت تأثيـر هذه الانماط الجديدة . وقد ظهـرت الرومانس الاوروبيـة في العصور الوسطى المتاخرة ، من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر . ولنتذكـر ان الحروب الصليبيـة بيـن القرنين الحادي عشر والثالث عشر هيأت للشرق والغرب ان يلتقيـا التقـــاء حضاريا وثقافيـا فضـلا عن اللقاء الحربي . ولا ريب ان الرومانسيات العربيـة التي ظهرت بين القرنين الثالث والسابع للهجرة كانت ذات اثر فعال في تغيير الذوق الادبي الاوروبي وتوجيهه نحـو هـــــذا الفـن الجديد .

وهذا ما شهد به احد كبار المستشرقين وهو الاستاذ جب في بحثه الذي نشره في « تراث الاسلام ». وقد تميزت هذه الرومانسيات ، على اختـلاف طبقاتها وانواعهـا بما يلي :

(١) انها نتاج مدرسة رومنطيقية ، بالمعنى النقدي لهذه الكلمة ، اي انهـا لم تكـن نتاجـا عفويا لعقلية ساذجة وخيال جامح كالحكايات والسيـر التي يتداولهـا العامة ، بل هي نتاج عقلية نقدية متنـــورة تبحث عن مشاعر جديدة واساليب مبتكرة في التعبير الادبـي . ولـم يكن هؤلاء الرواد اقل فطنة وبراعة من اتباعهم الذين استعاروا منهـم حكايات الجن والسحرة والغابات المخيفـة والقلاع المسحورة من كتاب الرومانس القوطيـة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

(٢) انهـا عنيت بتصوير عاطفة الحب : فلم تقتصر على تصويـر المغامرات العجيبة ، بل انهـا الى جانب المبارزات العنيفة بيـــن الفرسان بعضهم بعضا ، وبينهم وبيـن الشياطين والمردة ، كانت تعني بتحليل عاطفة الحب ، وتصوير سلوك الحبيب تجاه محبوبته ، ومتـى يكـون الحب مباحا ومتى يكون غير مباح ، ومـا هي الصفات التـــي ينبغي ان تتوافر في المحب الفارس وما الى ذلك .

(٣) العناية بوصف المخاطرات والغرائب : كان هذا الحب الذي تنعقـد اواصره في اجواء الفرسان والمحاربين يجتاز بالضرورة ضروبا من العقبات والصعاب ، وتلازمه انواع من المخاطـرات والمغامرات . يضاف الى ذلك حرص الكاتب على تنويع الاحداث وتلويـن المواقف وعلى تصويـر الامكنة البعيدة الغريبة ، وقد كـان الشرق معينـا لا ينضب لهذه الغرائب التي عاد بها الفرسان والحجاج من البلاد المقدسة ،ويكفي ان نذكـر هنا رحلـة شرلمان الى القسطنطينية ومـا لقي فيهـا مـن عجائب الشرق وغرائبه .

(٤) وصف مظاهر الثراء والفخامة : واجواء الف ليلة وليلـة وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس تحتوي على ضروب مختلفة من البذخ والفخامة والثراء ، سواء في البناء او في الرياش او الملابس .

وفي القرن السابع عشر بدأت موجة الرومانس تنحسر ليحل محلها نـوع من القصص جديد فيه رواسب من الرومـــانس ومخاطراتها وعجائبها ، وفيه مواعظ رمزية ووصف للحب البلاطي الى جانب الحوادث المسليـة المستمدة من حياة الواقع . ويتمثل هذا الادب الانتقالي في قصة « دون كيشوت » لسرفانتس وقصة « سياحة الحاج » لجون بنيان وقصة « اميرة دي كيلف » لمدام لافاييت . كانت هذه القصص آخـر صلة تصل بين عهد الرومانس وعهد القصة الواقعية التي بدأت فـي القرن الثامن عشر ، كمـا كانت الرومانس نفسهـا حلقـة متوسطـة بيـن مثاليـة الملحمة وواقعية القصة الحديثة . اما القصة الاولى ، « دون كيشوت » فهي تمثيل رائع لحيرة الانسان بين المثال والواقع ، ممثليـن في دون كيشوت وتابعه سانكوبانشا . فالاول قرأ كثيرا مـن رومانسيات الفرسان حتى اصبح عقله مستودعـا لصـــور المبارزات وتقاليـد الفروسية والحب البلاطي ، فخطـر له ذات يوم ان يقلد هؤلاء الفرسان الذيـن قرأ عنهم في كتبه وان يبعث عهد الفروسية بعـد فوات الاوان . اما تابعه سانكو بانشا فانـــه انسان بسيط ملتصق بالارض يرى الاشياء في حقيقتها الواقعية ويقيس كل شيء بمقيـاس

الحاجة الانسانية الملحة . وبهذا الصراع بين المثال والواقع اعتبرت قصة « دون كيشوت » تصويرا للصراع بين الرومانس التي ازدهرت في عصور الفرسان ومثاليانهم ، والقصة الحديثة التي كان لا بد لها من الظهور لكي تعبر عن الطبقة الجديدة ، المتوسطة ، التي اخذت تطفو على سطح المجتمع وتزاحم نبلاء الاقطاع والوراثة على مراكزهم الممتازة ، مستغلة منجزات العلم الحديث ، والكشوف الجغرافية التي يسرت سبل المواصلات واكتشفت قارة جديدة غنية ، والانقلاب الصناعي الذي افاد من نظريات العلم وتطبيقاته ، ومستعينة بالثقافة والادب المصطنع لكي تبرهن على جدارتها بهذه المكانة التي تسعى الى تسنمها . هذه الطبقة هي التي خلق لها هذا الادب الجديد الذي اطلق عليه النقاد اسم القصة الواقعية ، والذي انتقل في ظروف اجتماعية واقتصادية وفكرية مشابهة الى العالم العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد إن امضى ما يقرب من القرن في التجربة والخطأ . فما هي هذه القصة الجديدة وما هي خصائصها التي تميزت بها عن الرومانس ؟

اخذت هذه القصة الجديدة تعني بالعالم الحقيقي ، وتعالج الاشياء التي يضعها الكاتب في مستوى الحقائق في جو قريب من الواقع ليس عسيرا على الحواس ان تدركه ولا على العقل ان يكشفه. اصبح هم الكاتب الجديد ، اذا كانت غايته ان يتلاءم مع عصره وان يكون ابنا حقيقيا له ان يعنى بتفسير عالم الحقائق بعرض صورة الحياة كما تتراءى له وبما يتفق وتجارب الاخرين . ولكي تأسر هذه الصورة العقل وتسبي الحواس ، وتغري بالتصديق ، ينبغي ان تكون صادقة مع ذاتها الى آخر لمسة فيها ، وان تكون اجزاؤها وتفاصيلها مشابهة لما يعرفه القارىء الجديد في الحياة ، منسقة مع نظرته الفردية المستقلة الى الحقائق ، تلك النظرة التي كانت نقدية في اساسها ، متحررة من الفرضيات المسبقة ، والمعتقدات السلفية . وقد كانت القصة ، وهي الفن الادبي المستحدث ، مهيأة للتعبير عن هذه النظرة الفردية وهذا المنحى الفكري الجديد . فالفنون السابقة كانت تعكس الاتجاه العام لثقافاتها وذلك بجعل النزام الطرائق الموروثة عن السلف المقياس الاول للحقيقة . فحبكات الملاحم الكلاسيكية وملاحم عصر النهضة مثلا ، كانت تعتمد على التواريخ السابقة او الخرافات، وكانت خصائص معالجة الكاتب لها تقاس في الاكثر بقواعد مستمدة من النماذج السابقة المعترف بجودتها في هذا الفن . وكذلك كانت المأساة الكلاسيكية الجديدة تستل قاعدتها النقدية من كتاب «الشعر» لارسطو واجتهادات الشراح والمعلقين عليه .وتستمد حبكاتها من الاساطير الاغريقية او التواريخ الاوروبية .

ومحاكمة مسرحية السيد لكورني وادانتها لخروجها عن قانون الوحدات الثلاث وعن قواعد الكلاسيكية مشهورة مذكورة . وقد فعل الادباء السابقون ذلك لانهم ، غالبا ، تقبلوا الفرضية التي كانت شائعة في عصرهم ومؤداها ان الطبيعة ، في اساسها ، كاملة لا تتغير ، ولذا فان سجلاتها سواء كانت دينية او اسطورية او تاريخية تكون رصيدا كاملا للتجارب الانسانية .

اما القصة الحديثة فقد قامت على تحدي هذه المقاييس المفروضة، وجعلت الصدق بالنسبة الى التجربة الشخصية التي هي دوما خاصة ومتفردة ، فوق كل مقياس اخر . واستمدت حبكاتها من حياة ابناء الطبقة الوسطى البارزة في المجتمع ، ورفضت الحبكات التقليدية .

وقد كان في التقاليد القصصية السائدة في عصر الرومانس ، اشياء اخرى غير الحبكة ينبغي تغييرها قبل ان تتمكن القصة من تجسيم المفهوم الفردي للواقع ، في اطار من الحرية التي يتيحها لها منهج ديكارت ولوك . كان ينبغي اولا ان يوضع ابطال الحبكة والبيئة التي يتحركون فيها في مجال ادبي جديد : فالحبكة يجب ان يمثلها افراد معينون في ظروف خاصة محددة ، لا اشخاص نموذجيون يتحركون في بيئة عامة متسببة يحددها لهم العرف الادبي السائد . هذا التغيير كان يشبه رفض الكليات والتوكيد على الجزئيات في الفلسفة الواقعية الجديدة .

ومن الناحية الفلسفية تحول الاتجاه التخصيصي لتفهم الشخصية الى مشكلة تحديد الانسان الفرد . ومنذ اعطى ديكارت الاهمية العظمى للحركات الفكرية الدائرة في شعور الفرد ، اثارت المشكلات الفلسفية المتصلة بتحديد الهوية الشخصية اهتماما كبيرا بين الفلاسفة . وهذا ما تعكسه بحوث لوك وبطلر وبيركلي وهيوم وريد في انجلترا . وهنا يبدو التقارب بين ممارسات القصاصين الاول وتقاليد الفكر الواقعي المستحدث ، في اجلى صورة : فقد اهتم كلاهما بالفرد ، اهتماما فاق كل اهتمام سابق ، وخاصة في تحديد اشخاص الافراد باعطائهم اسماء حقيقية كاملة تشي بانتمائهم الى حياة البشر العاديين . فالاسم الشخصي تعبير خطابي صريح عن هوية الشخص الذي يحمله . ولقد كانت الشخصيات في الاعمال الادبية السابقة ، تعطي اسماء تشعرنا بان المؤلف لم يكن معنيا بتحديد الشخصية تحديدا خاصا فريدا ـ كانت في الاغلب اسماء تاريخية او ذات سمة تاريخية ، مستمدة من الادب الكلاسيكي . فالاسماء عند رابليه وسدني وبنيان كانت خلوا من الدلالات او ذات دلالات ومعان خاصة . وكانت عند كورني وراسين اسماء قديمة مما تردد في الادب الكلاسيكي ، وكلاهما لا يوحي لنا بوشيجة تصله بالحياة المعاصرة . كذلك كان من عادة الكتاب السابقين الاكتفاء بالاسم الاول بينما عمد كتاب القصة الى تحديد الشخصية بالاسم الكامل : الاسم الاول واسم العائلة . وهذه حقيقة تبدو لنا من العادي المألوف اليوم بينما كانت في ذلك الحين خطوة واسعة نحو الاقتراب من الواقع .

وقد عرف لوك وهيوم الشعور بالشخصية بانه شعور بالهوية في اطار الزمن ، اي اننا لا نحدد ذواتنا ولا نعرف العلة والمعلول او السبب والنتيجة الا اذا كانت لدينا ذاكرة زمنية . وقد حاول كتاب القصة الحديثة من رتشاردسون حتى بروست أن يعوا الشخصية القصصية من خلال شعورها بالماضي والحاضر . ومسألة البعد الزمني لها اثر آخر : فالافكار تصبح عامة مطلقة اذا جردت من اطارها الزمني المكاني ، بينما تكون خاصة وشخصية اذا كانت مرتبطة بالزمان والمكان .

وكذلك شخصيات القصة تصبح خاصة وفردية اذا تحركت ضمن اطار الزمن المكاني .

لقد تأثر ادب الكلاسيكيين بنظرية المثل الافلاطونية فالصور او المثل هي الحقائق المطلقة وراء المدركات الحسية في العالم الزمني. وهذه الصور تعتبر مجردة من الزمان ثابتة غير متغيرة . ولذا كانت الفرضية الاساسية في حضارتهم بوجه عام انه لم يحدث شيء ولا يمكن ان يحدث شيء لا يكون معناه الاساسي مستقلا عن الزمن . وهذه النظرة تغاير النظرة التي بدأت في الظهور منذ عصر النهضة والتي تعتبر الزمن لا على انه بعد من ابعاد العالم الطبيعي وحسب ، بل على انه ايضا القوة المشكلة للفرد وللتاريخ العام . يقول الناقد اي . م . فورستر ان تصوير الحياة من خلال الزمن هو الشيء الاول الذي اضافته القصة الى الادب الذي كان اهتمامه السابق منصبا على تصوير الحياة من خلال القيم . ويرى تورنروب فراي ان تحالف الزمان مع الرجل الغربي هو العنصر الذي يحدد القصة بالنسبة لغيرها من فنون الادب .

والمكان هو العنصر الملازم للزمان . كان المكان في ادب الماضي ـ عصر ما قبل القصة ـ مبهما سائبا مثل الزمان في التراجيديا والرومانس ، فمكان المأساة اي مكان امام القصر او في ساحة

المدينة ، واحداث الرومانس تقفز بين الامكنة فيخطوات واسعة عريضة لا يفرها العقل او منطق الاحتمال الانساني . اما كاتب القصة فقد عني بتصوير البيئة المدنية والطبيعية ، وتحديد الواقع واسماء الشوارع والبيوت ، ووصف الملابس والاثاث . والادوات والاشياء .

كل هذه الخصائص الفنية في القصة تؤكد غاية كان يسعى اليها القاص والفيلسوف ، وهي اخراج صورة حقيقية لتجارب الافراد تتفق ومفهوم القارىء وتجربته الخاصة في الحياة . ولم يكن من المستطاع ان تخرج هذه الصورة في اسلوب الشعر الذي خرجت به الملاحم والمآسي والرومانسيات ، ولا في اسلوب النثر المنمق الذي كتبت به المقاطع السردية في بعض الرومانسيات ، كان لا بد لهذا الفن الجديد من اداة جديدة ، ولم تكن هذه الاداة سوى النثر العادي البسيط . يقول الناقد تشارلتن :« اننا نحس الرغبة في قول الشعر عندما تنزع نفوسنا الى التسامي ، فاذا ما آردنا، مثلا ، ان نطرح عن انفسنا اعباء العيش الدنيوي بكل ما فيه من كلل وملال ، لنصعد بارواحنا الى ذرى التعبد ونشوة المثول بين يدي الله ،تغنينا بالترانيم الدينية شعرا . فالشعر بايقاعه الجميل يكون لنا بمثابة الاجنحة تخفق خفقات متتابعة فتعلو بارواحنا وعقولنا الى اجواز السماء .. واذا ما امتلأت نفس العاشق بحرارة الحب تراه ينفجر في غزل منظوم يتغنى به فيشعره الغناء المنغم الموزون انه قد سما الى اوج لا يسمو اليه في مجرى عيشه المألوف . وقد تكون العلة الحقيقية في ما للشعر على نفوسنا من اثر يصعد بها او يشعرها بالصعود ، شيئا في فطرتنا يجعل النفس تستجيب للوزن والايقاع . فليس من شك في اننا نفتن بسحر النغم في الشعر فتنة تخدعنا عن انفسنا فنقبل كل ما يسوقه الينا الشعر من افكار وصور وعواطف ومشاعر . فمهما يكن ما يقدمه الينا الشعر يصادف منا عقولا وعيونا وشعورا مذعنة مستسلمة ، متعاونة كلها على استيعابه وقبوله . فمعظم بحور الشعر لها القدرة على هذه الفتنة وهذا السحر الذي تستجيب له نفوسنا على النحو الذي ذكرنا ، فضلا عن انها بفعل ذلك السحر تزيد من ضخامة ما يحمل الشعر من معان. اذن فالشعر صوت ينطق بما هو خارق للمألوف وبما هو اسمى من مجرى الحياة المعهود وبالاحساس النادر الذي لا يلم بالانسان الا قبسات متباعدة ، فهو في الجملة يتحرك في مجال اعلى من مجال الحياة الواقعة . اما النثر فهو ، على نقيض ذلك، اداة تعبر عن الحياة الجارية المألوفة اشائعة ،التي لا غرابة فيها ولا شذوذ ولاسمو. فترانا نباشر اعمالنا بالنثر وننجز شؤون العيش بالنثر ، ففي مقدور النثر ان يعبر عن كل هذه الاشياء تعبيرا ادق واوفى مما يستطيع الشعر . واذا فطبيعة النثر من ناحية ، وما جرت به العادة الوف السنين من ناحية اخرى ، جعلت هذا النوع من التعبير مرتبطا في اذهاننا بما هو عادي واقعي مألوف .

ولما كانت القصةالجديدة تعنى بالعادي والواقعي والمألوف ،وتعالج الاشياء التي يصفها الكاتب في مستوى الحقائق في عالم قريب من الواقع الذي تدركه الحواس ويكتشفه العقل ، مما لا يراد له ان يكون بكرا جديدا مهما تكن قدرة الكاتب على الاختراع والابداع. فهل يمكن تصوير هذا العالم بالشعر ؟ ان الشعر ، كما بين تشارلتن ، ليس من هذا العالم ، بل هو ينتمي الى عالم الروح ، وهو لا يعالج الاشياء المؤقتة العابرة ، بل الاشياء المتسمة بميسم الخلود، تلك الاشياء التي تنتمي الى عالم الافكار الدائمة والحائق المطلقة . وهكذا فان الشعر ابداعي خلاق بينما القصة في اساسها نقدية تحليلية . الحياة تمتد بتجاربها وراء الشاعر لتجنح خياله وتمده بالصور والتشبيهات ، ولكنها تنبسط امام القاص ليسرح فيها بصره وحواسه وفكره ، ويجعلها موضوع اهتمامه وتطلعه وامله . وعندما يعمد الى تصويرها فان غايته من وراء ذلك ان يبرز المعنى الذي تنطوي عليه او يراه هو فيها . اما الشاعر فقد يكشف وقد يتمعن ، وقد لا يعدم المعرفة الوثيقة والتجربة الحية الاصيلة ، ولكنه يحول عينيه عن كل ذاك ، ليعبر عما تغلغل في اغوار نفسه البعيدة . والشعر ينقد الحياة ، ولكنه نقد غير مباشر بمعنى انالعالم المثالي الذي يرسمه لنا يضع بين ايدينا مقياسا لا يسعنا الا ان نقيس الحياة به ، وان نحكم عليها وفقا له . فالافكار المثالية جميعا نقد للحياة ، وان كان متاتيا بطريقة غير مباشرة ، اما القصة فهي نقد مباشر متعمد للحياةوتفسير لما خفي من جوانبها بالمعنى الذي قصده ارنولد حين قال : الادب تفسير للحياة .

بيروت — محمد يوسف نجم

في الاسواق

فكاهيات بلباس الميدان

للشاعر

الياس لحود

منشورات دار الآداب